بديع الزمان

احمد بهجت *

ينعقد في اسطنبول مؤتمر عن بديع الزمان سعيد النورسي.. وهو داعية مجدد الى الله.. ومفكر اسلامي ابدع آثاراً خالدة في "رسائل النور" وهي: رسائل النور كان يلقيها على مريديه واتباعه وتلاميذه.

وبسبب تعدد جوانبه حار فيه النقاد.. فمن قائل انه صوفي يكشف قلبه عن ايات الخالق في خلقه، ومن قائل انه من علماء الكلام الذين طوروا هذا العلم وابتعدوا به عن جفاف المنطق الى طرواة الايمان، ومن قائل انه اديب له جانبه الفني في الكشف والحديث، ومن قائل انه ثوري وقف يصد السهام عن الاسلام ويحمي عقائد الناس السليمة...

والحق ان سعيد النورسي هو هذا كله، وان كان المزيج النهائي شيئاً آخر غير تفصيلات الجزئيات.

ولقد حسم النورسي في حياته هذا الجدل وابان عن موقفه في احدى رسائله.. قال: ان معرفة الله المستنبطة بدلائل علم الكلام ليست هي المعرفة الكاملة.. ولا تورث الاطمئنان القلبي..

في حين ان تلك المعرفة متى كانت على نهج القرآن المعجز تصبح معرفة تامة وتسكب الاطمنان الكامل في القلب.

اما المعرفة الصوفية فناقصة ومبتورة ايضاً بالنسبة لنفسها امام المعرفة القرآنية.. ذلك لان أصحاب وحدة الوجود - كابن عربي - يقولون - لاموجود الا هو..

وهذا لاجل الحصول على الحضور القلبي الدائم امام الله سبحانه وتعالى حتى وصل بهم الامر الى انكار الكائنات..

اما المعرفة المستقاة من القرآن الكريم فتمنح الحضور القلبي الدائم في نفس الوقت الذي لا تقضي فيه على الكائنات بالعدم، ولا تسجنها في سجن النسيان المطلق.. بل تنقذها من الاهمال والعبثية وتستخدمها في سبيل الله سبحانه وتعالى جاعلة من كل شئ مراة تعكس المعرفة الالهية، وتفتح في كل شئ نافذة الى المعرفة الالهية.

ويرى الدكتور محسن عبدالحميد استاذ التفسير والفكر الاسلامي في جامعة بغداد أن النورسي يستند الى منهج جديد من مناهج المعرفة.. وهو منهج يستمد من القرآن المقروء، والكون.. وهو القرآن المنظور.. والرسول.. وهو القران الناطق الذي يدب على قدميه.

* * *

المثنوي العربي

الكتابة لها مصدر رئيسي.. وهو القراءة.. او ما نسميه بالثقافة.. وعلى قدر ثقافة الكاتب وتجاربه وحظه من الاحساس والموهبة تكون كتابته..

يصدق هذا على الكتاب جميعاً وان كان لكل شئ استثناء..

احياناً يقرأ المرء كلاماً يحس انه ليس من صنع هذا العالم.. ويصاب المرء بالدهشة حين يعرف ان قائل هذا الكلام لا يحترف الكتابة وليس في الاصل ممن يرتزقون منها او يعيشون عليها..

نضرب امثلة على ما نقول.. ان الصوفي محمد بن عبدالجبار النفري كان يقول هذه الدرر والجواهر دون ان يهتم بتسجيلها بالكتابة.. انما كان يقولها أمام تلاميذه، وليكتب من شاء ان يكتب..

مثال آخر.. سعيد النورسي.. لقد قال جواهر ولكنه لم يكتب سوى القليل منها، اما البقية فكانت رسائل يقولها لمريديه وتلاميذه..

هذه العبقرية التي لا تدري انها عبقرية شئ محير للغاية حين ننظر في تراث كثير من الصوفية والمجددين..

خذ مثلاً على ذلك رسائل النور، التي كتبها المجدد العظيم في الاصل لتكون رسائل لمريديه..

ان له مجلداً باسم المثنوي العربي، والاصل ان المثنوي هو كتاب مولانا جلال الدين الرومي، وتعني المثنوي في الشعر ابياتاً مثنى مثنى.. وقد كتب الرومي ما يقرب من عشرين الف بيت من الشعر في المثنوي المعنوي، ثم جاء النورسي وكتب بالعربية كتاباً سماه المثنوي العربي.. ورغم ان الكتاب ليس ديواناً للشعر، الا ان الاستاذ المجدد اختار لكتابه هذا الاسم..

ما الذي اراد ان يقوله باختياره هذا..

احسب انه اراد ان يشير هنا الى تأثير هذه الرسائل في القلب والعقل والنفس والروح..

ان عمله في تجديد الايمان وترسيخه في القلب وبعثه للروح الخامد في النفوس يشبه تأثير المثنوي الذي كتبه جلال الدين الرومي بالفارسية..

من هنا سماه النورسي بالمثنوي العربي، تأكيداً لأنتمائه الى روح جلال الدين الرومي، وتمييزاً له في نفس الوقت عن المثنوي الرومي.. والحق ان هذا الكتاب اية من ايات البلاغة التي لم يصل اليها كاتب عبقري يحترف الكتابة.

* * *

كلامك غامض

يقول سعيد النورسي تحت عنوان "ايضاح":

اذا مادخلت بستانا فلا اجنى الا اجود الثمرات.. حتى اذا ما تعبت في قطفها اجد المتعة واللذة، ولو وقع نظرى على الفاسدة منها اصرفه عنها آخذاً بالقاعدة: خذ ما صفا ودع ما كدر.

هكذا انا.. فارجو ان يكون قرائي ايضاً مثلي..

يقال لي: ان كلامك لا يفهم بوضوح.

- نعم.. ما حيلتي.. هكذا ترد السانحات على القلب، احياناً اجدني كانني اتكلم فوق منارة عليه، واحيانا اخرى اراني انادى من قعر بئر عميق..

فيا قارئي العزيز.. ارجو ان تلاحظ في هذه الرسالة..

ان المتكلم هو قلبي العاجز..

اما المخاطب فهو نفسي العاصية.

بينما المستمع هو ذلك الانسان الذي يتحرى الحقيقة..

هذه الكلمات تضئ لنا الملاحة في بحر النورسي، وهو بحر ملئ بالامواج والاهوال عند سطحه، ولكن قاعه يضم الجواهر والدرر، وهى جواهر يحتاج استخراجها الى عناء ومشقة وفهم وجهاد..

احيانا يرق اسلوبه فيصبح في عذوبة الربيع، واحياناً اخرى يكفهر كما يحدث في العواصف الشتائية القاسية.. واحيانا تبكى السماء ويبكى قارئه معها واحيانا اخرى يشيع جو من الدفء في كلماته.. وهذا كله يتعاقب عليه كما تتعاقب الازمنة والفصول على الارض.

يحدث هذا كله بعفوية لا يتحكم هو فيها مثلما لا يتحكم الانسان في الفصول الاربعة..

يقول سعيد النورسي "اعلم ان النواة قبل ان تصير شجرة، والنطفة قبل ان تتحول الي جنين، والبيضة قبل ان تصير كتكوتا، والحبة قبل ان تصير سنبلة..

اعلم ان هذا كله لابد ان يكون تحت تدبير علم نافذ وتربية، فما هو الا علم علام الغيوب الذي يصور في الارحام كيف يشاء، عالم الغيب، غيب الماضي والمستقبل.. وشهادة الحاضر.. فكأن كلا من النواة والنطفة والبيضة والحبة تذكرة مختصرة، استنسخت من الامام المبين من كتب العلم الازلي ومكتوباته، او دساتير استنبطت من ام الكتاب من كتب القدر الاعلى".

---

* احمد بهجت - القاهرة: - واحد من نجوم الصحافة المصرية والعربية، وكاتب له اتجاهه الاسلامي. - يعمل نائباً لرئيس تحرير جريدة الاهرام القاهرية، وله عمود يومي شهير اسمه صندوق الدنيا، وهو عمود يقرأه يومياً مليون قارئ.. وهو عدد قراء الجريدة. - كتب ٣٥ كتاباً منها ما هو اسلامي بحت ومنها ما هو نقد اجتماعي ومنها ما هو ادبي ساخر وقد ترجمت له ٤ كتب الى اللغات الانكليزية والفرنسية والهندية والصربو الكرواتيه.